هل كنيستك حيّة — أم فقط مشغولة؟

بقلم : ديفيد اديب[1]

16 يونيو 2025

منذ بضع سنوات ، استمعت إلى عظة بعنوان :"علامات الكنيسة الميتة" . أثرت فيّ تلك العظة تأثيراً عميقًا جعلني أشعر بأنني مضطر للكتابة عنها ، مقتنعًا بأن رسالتها ستَلْمس قلوب كثيرين . وبينما يعتمد بعض هذا المقال على النقاط التي طرحتها تلك العظة ، فإن الغالبية العظمى مما ستقرؤه هنا نابع من تجربتي الشخصية داخل واحدة من أكبر الكنائس التقليدية ، وربما من أقدم الكنائس في المسيحية — الكنيسة القبطية الأرثوذكسية .

ولتوضيح الخلفية ، فقد نشأتُ في الكنيسة القبطية ، ومثل شاول الطرسوسي الذي كان مُتعمقاً في تقاليد الفريسيين ، كنت أنا أيضًا غارقًا في تقاليد كنيستي وعقائدها . كنت شماسًا ذا شأن ، ومُعلمًا للألحان القبطية ، ومُدرّسًا في مدرسة الأحد ، وأحيانًا كنت أُعظ . في وقت ما ، التحقت بأحد معاهد الألحان القبطية لتعميق معرفتي بتاريخ الكنيسة القبطية وألحانها وطقوسها . بل وتم ترشيحي للكهنوت في وقت من الأوقات! خلال السنوات التي قضيتها في الكنيسة القبطية ، كنت شديد الحماسة لإيمانها وتراثها وتعاليمها . لم أنضم إلى كنيسة أخرى قط ، وحتى في المناسبات القليلة التي حضرت فيها خدمات في كنائس مختلفة ، كنت دائمًا أشعر أن ما أمتلكه في كنيستي أفضل وأكثر أصالة . كنت اشعر بفخر أن الكنيسة التي أنتمي إليها أكثر أرثوذكسية في تعليمها ، وأكثر إخلاصًا لكلمة الله ، وأقرب تاريخيًا لما علّمه ومارسه الرسل تلاميذ الرب يسوع . باختصار ، كنت أؤمن بصدق أن ما لديّ في كنيستي هو "الحق الكامل" ، في حين ان الكنائس الأخرى اقل بكثير .

كيف أنقذني الرب من تلك العقلية — وفي النهاية أخرجني من الكنيسة القبطية في سن الثالثة والأربعين — هو قصة أخرى ليوم آخر . لكن الآن ، دعني أقول ببساطة ، إنني بنعمة الله تحررت من روح التدين التي قيدتني طويلاً ، وصرتُ أتمتع اليوم بعلاقة شخصية وحقيقية مع مخلّصي يسوع المسيح ، ابن الله . لم تعد علاقتي مع الرب مدفوعة بالطقس ، بل بمحبة شديدة تجاهه ؛ لا بالممارسة ، بل بالصلة الشخصيةمعه . هذه الخلفية ضرورية لفهم كلٍّ من العبء الذي أحمله في هذا المقال ، وسبب قناعتي بأنها لازمة ومُلِحَّة .

عندما سمعتُ تلك العظة لأول مرة ، كنت أقود سيارتي وأستمع إلى العظة عبر الراديو . وعندما وصلت إلى وجهتي ، لم أستطع مغادرة السيارة ، لأنني أردت أن أستمع إلى العظة حتى نهايتها . إن قُلتُ إنني كنت مصدومًا فهذا لا يكفي . فقد كانت كل سمة للكنيسة الميتة تعكس تمامًا ما اختبرته انا في الكنيسة القبطية . جلست أتساءل : كيف

---

[1] اضغط هنا لتقرأ المقال الاصلي و الذي تم نشره باللغة الانجليزية .

يمكن لواعظ على الأرجح أنه لم يسمع من قبل عن الكنيسة القبطية أن يصفها بهذه الدقة والوضوح ، وكأنه عاش فيها لسنوات؟ في لحظة ما ، خطر لي أنه ربما قام بتحديد السمات الرئيسية في الكنيسة القبطية وذكرها في عظته! لكن من الناحية العملية ، أدركت أن الأمر أهم من ذلك— إن كان واعظ لا يعرف شيئاً عن الكنيسة القبطية قادراً على ذكر خصائص الكنيسة الميتة ، وجميعها تنطبق بدقة على الكنيسة القبطية ، فلا بد أن الروح القدس هو من أرشده لتحديد صفات كنيسة لم يزرها من قبل .

ما يلي هو خمس علامات للكنيسة الميتة— علامات أعتقد أنها تنطبق ليس فقط على الكنيسة القبطية التي عرفتها وحسب ، بل على كثير من الكنائس الأخرى . ليس غرضي انتقاد كنيستي السابقة أو كنيستك . بل أدعوك أن تتأمل فيما ستقرأ لتُقيّم كنيستك الحالية (بل و حياتك الروحية) : هل هي حيّة حقًا ، تخدم المسيح وتبني ملكوته من خلال تغيير قلوب الناس وحياتهم؟ أم أنها تخدم مصالحها ومصالح قادتها— كنيسة ، كما يقول سفر الرؤيا 3 : 1 ، "لها اسم أنها حية ، وهي ميتة"؟

1 . كنيسة تعبد ماضيها

ربما تكون العلامة الأوضح على موت كنيسة ما هي إدراكها الخفي لموتها! ولا يتجلى هذا الإدراك بشكلٍ أكثر إلا من خلال تعلُّقها الشديد بماضيها . فالكنيسة الميتة تتشبث بمجدها السابق إلى درجة تبدو وكأنها لا تزال تعيش فيه .
غالبًا ما ينبع هذا الحنين إلى الماضي من إدراك — سواء مُعلن أم لا — بأن حاضرها لم يعد يعكس الحيوية التي كانت تملكها ذات يوم . **الذين لا يملكون حاضراً يفتخرون به ، يميلون إلى العيش في ماضيهم!** هذه الكنيسة الخالية من الحياة مستعدة للدفاع عن ماضيها بأي ثمن ضد أي شخص يتجرأ على التشكيك في دقته أو أصالته أو صلته بالحاضر .
هذه الظاهرة لا تقتصر على الكنائس الميتة ، بل تنطبق أيضًا على الأمم الميتة . فالمجتمعات التي كانت في طليعة الحضارة ، عندما تتخلف وتتراجع ، تبدأ بالافتخار بتاريخها بدلاً من حاضرها . وكشخص نشأ في مصر ، شهدت هذا الواقع بعيني . كانت مصر ذات يوم في طليعة العالم المتحضر ، لكنها الآن مُصنّفة بجدارة كدولة من "العالم الثالث" ، وكل ما تبقى للمصريين اليوم ليفتخروا به هو أن أجدادهم بنوا الأهرامات منذ أكثر من خمسة آلاف سنة!
في الكنيسة الميتة ، يظهر هذا التعلق بالماضي غالبًا في تمجيد كتابات آباء الكنيسة الأوائل ، ورفعها إلى منزلة مساوية للكتاب المقدس ، مع تجاهل الإعلانات التي قد يختار الروح القدس ، بحكمته الإلهية ، أن يمنحها للمؤمنين المعاصرين . تُشكّل هذه النصوص التاريخية أساس العديد من العقائد في تلك الكنائس ، وغالبًا ما يُقْطَع من الشركة الأعضاء الذين يرفضون هذه المعتقدات — التي تفتقر للدعم الكتابي — أو يُعتبرون هراطقة .
ورغم أنه قد يكون مفيداً للكنيسة أو المجتمع أن يتذكر تاريخه ويفتخر بإنجازاته الماضية ، إلا أن التعلُّق غير الصحي بالماضي يمكن أن يُشكّل عائقًا خطيراً . في الواقع ، هذه السمة الأولى للكنيسة الميتة هي الجذر الذي تنبت منه باقي العلامات الأخرى للموت . فعندما تكون الكنيسة (أو المجتمع) شديدة التعلق بماضيها ، وتنظر باستمرار إلى الوراء ، وتبالغ في الفخر بإنجازات لم تساهم الأجيال الحالية فيها بشيء ، فإنها تعجز عن التقدم ، وتبقى تمامًا في حالة من الركود التام .

2 . كنيسة ترفض التغيير

الارتباط المفرط بالماضي والتعبد لأمجاده يؤدي حتماً إلى الخوف من التغيير ورفضه . فلكي يَقْبل المرء التغيير ويسمح بحدوثه ، عليه أن يكون مستعداً للتخلي — ولو جزئيًا — عن الطريقة التي كانت تُمارَس بها الأمور سابقًا أو حتى ما هي عليه الآن . فلكي يحدث النمو ، لا بد من الرغبة في المضي قُدمًا ، وهو ما يتطلب بطبيعة الحال ترك الوضع الحالي خلفك .

عندما قال أحد الراغبين في التلمذة على يد الرب يسوع إنه يريد أولاً أن يُودّع أهله في البيت قبل أن يتبعه ، أجابه الرب يسوع :

"**لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى الْمحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى الْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ اللهِ**" (لوقا 9 : 62) .

بعدها بسنوات ، عبّر بولس عن هذا المبدأ الروحي نفسه عندما كتب إلى أهل فيلبي قائلاً :

"ولكني أفعل شيئًا واحداً : أنسى ما هو وراء وأمتد إلى ما هو قدام ، أسعى نحو الغرض لأجل جعالة دعوة الله العليا في المسيح يسوع" (فيلبي 3 : 13–14) . **بالنسبة لبولس ، كانت القدرة على التقدّم للأمام سمة من سمات النضوج الروحي والنمو في المسيح** ، إذ يتبع ذلك مباشرة بقوله : "فليفتكر هذا جميع الكاملين منا ، وإن افتكرتم شيئًا بخلافه فالله سيعلن لكم هذا أيضًا" (فيلبي 3 : 15) .

ويجب أن أوضح أن التغيير الذي أشير إليه هنا لا يتعلق بالإيمان إطلاقًا . فكما يُصرّح بولس في غلاطية1 : 8–9 ، "الإيمان الذي سُلِّم مرة للقديسين" يجب ألا يتغير . ما أتحدث عنه هو التغيير في الممارسات أو التقاليد — وهو تغيير لا يمس جوهر ما نؤمن به . فعلى سبيل المثال ، إدخال آلات موسيقية مثل الجيتار أو البيانو إلى القداس القبطي اعتبره البعض نوعًا من الهرطقة (وهذا ما حدث فعلاً في الكنيسة القبطية في السنوات الأخيرة!) . ومع ذلك ، فإن هذا لا يُغيّر شيئًا مما يُعلّمه الكتاب المقدس بخصوص أصول الإيمان . ومع هذا ، فإن مثل هذا النوع من التغيير يُواجَه بمقاومة شرسة في كنيسة ميتة .

لكونها كنيسة ترفض أن تخرج خارج مجدها الماضي ، وما تعتقد أنه كان "عصرها الذهبي" ، هي كنيسة محكوم عليها بالركود . وعلى عكس بولس ، فإنها تتذكّر ما وراء ولا ترغب في التقدّم إلى ما هو قدّام! **الكنيسة التي تعتقد أن ماضيها هو كل ما لديها ، أو أفضل ما لديها ، لن تتمكن أبداً من ان يكون لها حاضر يمكنها أن تفتخر به بنفس القدر .**

3 . كنيسة قادتها كسالى لكنهم متسلطون

قادة الكنيسة الميتة هم حراس تراثها . ولحماية هذا التراث من أي محاولة للتجديد أو التقدم ، يميل هؤلاء القادة إلى فرض سلطتهم على الرعية ، متسلطين عليهم — بعكس ما أوصى به ربنا يسوع تلاميذه حين قال إنهم لا يجب أن يتسلطوا على إخوتهم وأخواتهم (لوقا 22 : 24–27) . وغالبًا ما يكون هذا النوع من ممارسة السلطة ضروريًا في نظرهم لإسكات كل من يختلف معهم في الرأي أو يتساءل عن عقيدة الكنيسة أو تفسيرها للكتاب المقدس .

وتصبح أولويتهم ، كما يصرّحون بذلك مرارًا ، هي "حماية الإيمان" ، بدلاً من رعاية قطيع الله . وفي هذا الإطار ، تأخذ عملية الدفاع حتى عن العقائد غير الجوهرية مكانًا متقدمًا على حساب وحدة جسد المسيح ، وعلى حساب خلاص النفوس وربحها لملكوت الله . وينسون أن الهدف الأسمى من الإيمان هو خلاص النفوس! (1 بطرس 1 : 9) .

وباعتبارهم "حماة التاريخ" ، لا يشعر هؤلاء القادة بالحاجة إلى الدراسة أو الغوص في كلمة الله أو استمرارية التعلُّم الروحي واللاهوتي . وهذا ما أُسميه شخصيًا "الكسل الفكري" . فبالنسبة لهم ، يكفي أن يكرروا ما تعلموه من غيرهم ، وخصوصًا من أصحاب المراتب العليا في الكنيسة ، مثل الأساقفة والبطاركة . الكثير مما يقولوه في عظاتهم أسبوعًا بعد أسبوع ليس سوى تكرار لما قاله غيرهم قبلهم . العظات في تلك الكنائس عادة ما تفتقر إلى الحياة ، والحماس ، والتطبيق العملي . أما إعدادها ، فيتم غالبًا من خلال الاستماع إلى عظات لآباء آخرين داخل الكنيسة في الموضوع نفسه ، وتدوين بعض الملاحظات منها .

4 . كنيسة يُهمَل فيها الشباب

في الكنيسة الميتة ، حيث يتصدر القادة المشهد وسط بيئة روحية باهتة ، كثيرًا ما يُهمَل الشباب ويُهمَّشون . فالشباب في هذه الكنيسة هم أول من يشعرون بموتها الروحي ويلاحظونه بوضوح . إذ أن الشباب ، في كل مجتمع تقريبًا ، يتميزون بالحيوية والنشاط ، ويبحثون عن الأصالة والصدق ، عندما تغيب هذه الصفات ، فَهُم أول من يرحل . وعندما تحاول هذه الكنيسة الميتة إخفاء موتها وتغطية تصدعاتها الظاهرة ، يستطيع الشباب أن يروا بوضوح زيفها وعدم صدقها . إنهم ببساطة لا يتحملون كنيسة خالية من الحياة . فَهُم يدركون جيدًا أن هناك رفضًا لاستبدال التظاهر بالأصالة ، والتاريخ الراكد بالحاضر النابض . ولهذا ، فإن النتيجة الحتمية هي أنهم يتركون الكنيسة — وغالبًا لا يعودون أبدًا .

قد يترك بعض هؤلاء الشباب الكنيسة الميتة لينضموا إلى كنيسة حيّة تنبض بالحياة ، لكن للأسف ، كثيرون منهم يتركون الكنيسة بالكامل ، بل و يتركون الإيمان ذاته . ومن المفارقات المؤلمة أن النهج الذي تتبعه هذه الكنيسة الراكدة للحفاظ على رعاياها — من خلال التشبث بالماضي ، والقيادة السلطوية ، ورفض التغيير — هو بعينه السبب في نفور جيلها الشاب ، ذلك الجيل الذي يمثل مستقبلها وأملها!

5 . كنيسة بدون الإرسالية العظمى

فيما هي منشغلة بالحفاظ على ماضيها وبفرض السيطرة على أعضائها ، تفتقر الكنيسة الميتة إلى الاهتمام والحيوية الروحية اللازمين للقيام بالمهمة الأساسية التي أسس الرب كنيسته من أجلها — وهي الكرازة . من خلال تجربتي الشخصية ، فإن أكثر القادة لا مبالاة بخلاص النفوس هم أولئك الذين يتولون قيادة مثل هذه الكنائس . فعلى الرغم من أن الرب أوصى كنيسته بأن تكرز بالإنجيل وتعلّم جميع الأمم كل ما أوصاهم به (متى 28 : 19–20) ، فإن هؤلاء القادة يهتمون أكثر بمنع أعضائهم من حضور كنائس أخرى أو الانضمام إليها — وخاصة إن كانت من طوائف مختلفة . وهناك من يركّز فقط على "جمع المسيحيين الضالين" من طوائف أخرى ، في محاولة لإعادتهم إلى ما يعتبرونه "الإيمان الأرثوذكسي القويم"!

واحدة من أبرز الأمور التي لاحظتها شخصيًا حين بدأت في حضور الكنيسة الإنجيلية — قبل سنوات من مغادرتي للكنيسة القبطية نهائيًا — هي تركيزها الكبير على الكرازة وتعليم الإنجيل لغير المؤمنين . وهذا شيء لم أكن أراه قط داخل الدوائر القبطية . كثيرون يدّعون أن السبب في عدم قيام الأقباط بالكرازة هو أنهم "كنيسة مضطهدة" في مجتمعات ذات أغلبية إسلامية . لكن هذا غير صحيح . حتى عندما يهاجر الأقباط المصريون إلى بلدان أخرى مثل

الولايات المتحدة ، أو كندا ، أو أستراليا — حيث يمكنهم أن يكرزوا بحرية — فهم لا يُظهرون أي اهتمام ولا يبذلون أي جهد للكرازة لغير المؤمنين .

قبل سنوات ، كنت في فترة خلوة روحية في الإسكندرية دامت بضع سنوات حيث دعاني الرب لقضاء وقت في قراءة ودراسة الكتاب المقدس ، تمامًا كما فعل بولس في العربية . وفي أحد الأيام ، بينما كنت عائدًا إلى المنزل من الكنيسة خلال الأسابيع الأولى من تلك العزلة ، استطعت أن أمدّ يد العون لرجل غريب في الشارع ، واتضح لاحقًا أنه مُسلم . وعندما سألني إن كنت مُسلمًا أيضًا — وهو سؤال شائع في تلك المنطقة من العالم — أجبته بأني مسيحي . وقد تأثر الرجل بأن إنسان مسيحي ، يعتبره هو كافرًا ، توقف ليساعده ، وعلّق قائلاً إن بعض المسيحيين أطيب من معظم المسلمين . فقلت له إننا لسنا طيبين لأننا أفضل من غيرنا ، بل لأن ربنا يسوع ، الذي نعبده ، هو من يجعلنا هكذا . وبينما كان يُصرّ على أن الرب يسوع لا يعدو كونه نبيًا عاديًا ، بدأت أشرح له من الكتاب المقدس أن يسوع هو ابن الله ، وهو مساوٍ لله في الجوهر . قضيتُ معه ما يقرب من خمس وأربعين دقيقة وأنا أبشره بالمسيح . وعدت إلى منزلي في ذلك اليوم مملوءًا فرحًا ، لأني شهدت لربي لمخلّصي . ولكن لم تكن هذه هي نهاية القصة .

فور وصولي إلى المنزل ، أمسكت الهاتف واتصلت بصديقة لي ، كانت ، مثلي ، متجذرة في الكنيسة القبطية . بل إنها كانت مسؤولة عن "لجنة الكرازة" في الكنيسة القبطية في مصر — التي ، ومن المفارقات ، لم تكن تكرز في مصر ، بل كانت ترسل بعثات تبشيرية إلى دول أخرى مثل الهند وتايلاند وسنغافورة . قصصتُ عليها ما حدث معي ، وأنا لا أزال أشعر بالفرح الذي لا أزال أذكره حتى اليوم . لكن ردها كان صادمًا . فقد وبّختني لأنني تحدثتُ عن المسيح مع شخص في شارع عام . وقالت إن مثل هذه الأمور يجب أن تُدار "بحكمة" وإنني قد عرّضت نفسي للخطر . وعلى الرغم من أن ردها بدا منطقيًا من الخارج ، إلا أنني وجدتُ نفسي أقول لها : "لأكون صريحاً معكِ ، أنا مُتن لأن بطرس وبولس كانا أكثر شجاعة منكِ! فلو أن كل واحد من هؤلاء التلاميذ خاف على سلامته ، وسعى إلى التصرف بـ 'حكمة' كما تقولين ، لما عرفنا اليوم ما معنى أن نكون تابعين للمسيح . لهذا السبب ، كثيرون يُدعون ، ولكن قليلين يُنتخبون!" بعد عامين تقريبًا ، عدت إلى الولايات المتحدة ، لكن لا يزال ذلك اليوم المليء بالفرح محفوراً في ذاكرتي حتى اليوم .

كلمة ختام

في الختام ، دعني أذكّرك بأن ربنا يسوع لم يأتِ إلى هذا العالم ليؤسّس نظامًا عقائديًا أو طقوس عبادة . ولم يَمُتْ ليقدّم لنا قانون إيمان أو ليحافظ على تقاليد . لقد جاء ليُخلّص — ليطلب ويُنقذ الهالكين ، وينتشل النفوس من نار الجحيم (يهوذا 23) . وقد كانت وصيته الوحيدة للكنيسة واضحة : "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمّدوهم ، وعلّموهم أن يحفظوا كل ما أوصيتكم به" (متى 28 : 19–20) . وحتى عندما تُطْعم الكنيسة الجائع ، أو تأوي الغريب ، أو تعتني بالمريض والمحتاج ، يجب أن يكون كل ذلك في خدمة الرسالة الأعظم : إعلان إنجيل الخلاص بالمسيح . فما الفائدة من التخفيف عن معاناة الناس المؤقتة إن أهملنا مصيرهم الأبدي؟ وبالمثل ، ما قيمة كنيسة تفتخر بأنها تحفظ "التعليم الصحيح" بينما هي ميتة وغير قادرة على تلبية الاحتياجات الروحية لشعبها؟ قد تبدو الكنيسة أمينة من الخارج ، ولكن إن تخلّت عن رسالتها ، فهي قد ماتت بالفعل — حتى و إن ادّعت بأنها حيّة وعاملة .

عنوان هذا المقال هو "هل كنيستك حية — أم أنها تتحرك فقط؟" ، ولكن هذا السؤال يستحق أن يتأمله كل مسيحي في حياته الشخصية أيضًا : هل تعيش للمسيح؟ هل تخدمه ، وتشهد عنه للآخرين ، وتُسهم في بناء ملكوته؟ أم أنك ، أنت أيضًا تتحرك فقط؟ — مشغول بما يدعوه الكتاب المقدس "هموم هذا العالم" ، مشغول بالعمل ، والعائلة ، وحفظ الثروات؟ أشجّعك على التأمل في هذه الأسئلة ، لئلا تكون مشغولاً بما هو زمني ، مُهملاً ما هو أبدي ؛ مُهتم بما هو مؤقت ، ومتغاضٍ عن ما هو دائم .